أثرُ الحربِ على المنطقةِ والدولِ المسلمة

قراءةٌ في المآلاتِ والموازناتِ الشرعية

أ.د. فضل عبد الله مراد

٢١/ ذو الحجة/ ١٤٤٦هـ

١٧/ يونيو/ ٢٠٢٥م

أثرُ الصراعِ الدائرِ على الدول المسلمةِ في المنطقة والعالم لا يخفى على العين، لولا غاشية من فقه اللحظة، والقراءة الآنية، وردَّة الأفعال.

أولاً: ماذا يجب على علماء الشريعة في النظر وفرضيات المآلات:

ـ إن عالم الشريعة حينما يصدر حكماً يجب عليه تغطيته بالتصور الكامل، سوابقه ومآلاته.

ـ فإن اقتصر على نظرة لحظية، أو على موقف جزئيٍّ فقط، وبنى عليه الحكمَ الشرعيَّ زلَّت قدمُه.

ـ ومن أراد أن يُفتيَ في نازلةٍ عامةٍ وجبَ عليه أن يدرسها من كلِّ جوانبها، وأن يشاور، وأن ينظر في كلِّ جوانبها، مصالحَ ومفاسدَ، وأن ينظر في كل عللها الموجبة للأحكام في كل جهة.

وبناءً على ذلك نقول: إن الأثر المآلي للحرب هو أثرٌ سلبيٌّ في الجملة في كلِّ الأحوال بالنظر إلى الاحتمالات الثلاثة + واحد، ومآلاتها المصلحية والمفسدية، إلا أنَّ بعضه أشدُّ من بعض، وهذه نقطة مهمة جداً، يخطئ العالم إذا أغفلها في النظر التنزيلي.

ـ فإن المفاسد إذا وجدت نظرنا إلى أعظمها وأدومها وأعمِّها وأقواها.

ـ فإذا اجتمعت هذه الأوصاف كانت المفسدة واجبةَ الدفع، مقدمة على غيرها.

وسأضعها جميعاً على طاولةِ النظر والبحث بثلاث فرضيات مركزية، ورابع محتمل، ومآلاتها ومفاسدها ومصالحها:

المآل الأول والفرضية الأولى: انتصار إسرائيل:

مفاسده: صهينة المنطقة بالعلاقات والتطبيع والنفوذ والاقتصاد، والقضاء على أيِّ مشروع مقاومة، ومحاربة الدين وأهله، والحركات الإسلامية، وتصفية قضية غزة، وهيمنة المشروع الغربي والقطب الواحد على المنطقة، مما سيؤدي إلى تراجع نفوذ المشروع الشرقي في المنطقة، ومن ثم فقد التوازن التدافعي، فهذه مفاسدها.

أما مصالحها: فلها أثر مصلحي هو تصفية النفوذ الإيراني في المنطقة؛ كاليمن والعراق وغيرها، وتخليص شعوب المنطقة المظلومة من الحرابة الشيعية التي سامتهم سوء العذاب واحتلَّت أربع دول منهم.

ـ كما أن التخلص من العدو الصهيوني ممكن؛ لأنه عدوٌّ خارجيٌّ ظاهرٌ لا يخفى على العوام من الأمة.

المآل الثاني والفرضية الثانية: انتصار إيران:

معناه من جهة المفاسد: تشييع المنطقة والتمدد الكبير، واحتلال عواصم أخرى، إضافة لما هو حاصل أصلاً، وخلق صراعٍ إضافي بالقوة والنار في بلاد السنة ودولها، وبقاء احتلالها لدول سنية، بل وزيادته واستفحاله، وإنهاء الحركات السُنية والأنظمة السُنية، وخلق جيلٍ عنصريٍّ مؤمنٍ بتبعيته للمرجعية ودونيته، والهيمنة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية على الحياة في دول الخليج والمنطقة.

أما من جهة المصالح: فليس هناك أي مصلحة في انتصار هذا المشروع إلا احتمال مساعدتها للمقاومة في غزة، وهو مستبعد إذا انتصرت؛ لأن المشروع الشيعي أهدافه الاستراتيجية ليس نصرة غزة، ولا السُنَّة، ولا الأمة، إنما أن يكونوا بديلاً عن الأمة وشعوبها، من الكرسي إلى العقيدة إلى المنهج إلى المسجد إلى المال والاقتصاد إلى النفوذ إلى كل مظاهر الحياة.

ـ وهذا مفسدة ظاهرة وهي أكبر من نصرتهم الصورية لغزة.

المآل الثالث والفرضية الثالثة: أما عدم انتصار الطرفين:

فبقاء الصراع وزيادة الولاءات وتعددها، مما يثمر زيادة في تمزيق النسيج العربي والإسلامي، دولاً وأنظمةً وشعوباً، مع بقاء الصراع في اليمن والعراق وزيادة التمزق في المنطقة، وهذا مفاسده غالبة وعظيمة كما هو واقعنا اليوم.

المآل الرابع والفرضية الرابعة: توسع الصراع إلى أن يدخل المحور الشرقي والغربي:

وهذا أمره لله وحده، والله يعلم أين مصلحة الأمة.

ثانياً: كيف يبنى النظر الشرعي في هذا النازل؟

ـ والموقف الشرعي الصحيح مبني على الموازنات بين المصالح والمفاسد، وعلى قراءةِ الحقائقِ والمشاريعِ والخلفيات.

وفي النظرة الكلية تكون الرؤية:

أن من وقف مع إسرائيل: وقف مع عدو شامل للإسلام والمنطقة، ووقف مع المشروع الغربي وهيمنته، ووقف مع كل المفاسد التي ستؤول إلى صهينةِ المنطقةِ العربية.

ومن وقف مع إيران: إنما وقف مع المشروع الشيعي العنصري الذي تتجه بوصلته إلى الأمة، حرباً وصراعاً وتشريداً وقتلاً، وإيقاداً لنار الفتنة العنصرية التي تقضي على الأمة ومشروعها. فمن وقف معه إنما يقف مع هذا المشروع.

ـ ولكن بالفحص يجب أن يُنظر إلى أي الشرَّينِ والمفسدتينِ أعظم.

- وأنت أيها العالم، بل أيها العاقل: انظر إلى مئة مليون سني في اليمن والشام والعراق، يجب عليك أن تستحضر النكال والقتل والتشريد لملايين السنة، وانتهاك أعراضهم، وسحلهم وإذلالهم، واحتلال عواصمهم، بل أخذ بيوتهم وممتلكاتهم بأمر قضائي.
- ولو وازنت بين ما قتلته إسرائيل في ٧٥ عاماً وكم شرَّدت لما وجدت مقارنةً أصلاً.
- ولو وازنت بين مفاسد البقاء للمشروعين سترى بعينيك وعقلك أين المفاسد الأعظم.

ثالثاً: نظرُ العالِمِ إلى الكليات والجزئيات جميعاً، لا إلى جزئية:

ـ أثار بعض العلماء علةً جعلوها شرعيةً، تناط بها مصير أمة في أخطر القضايا، وهي نصرة غزة، ونصرتها حق، وواجبٌ لا يماري فيه مسلمٌ ولا عالم.

ـ لكن أن يقول العالم: من نصَرَهَا أيَّدناه، ولو كان قد نكَّل بمئة مليون سني في اليمن والشام والعراق، ولو شرَّدَ ١٥ مليون سني، ولو قتل مليون ونصف، وسجن وعَذَّبَ وانتهك ما لا يحصى.

وفجَّرَ، ...ووو إلى آخر المصفوفة المفاسدية.

ـ ثم يقول: نصرة غزة أولاً، فيبني الأحكام على علةٍ واحدة، ونظرٍ جزئي، ويهمل كلَّ العلل الأخرى.

ـ وهذا هو الخطأ العلمي الفادح.

ـ معلومٌ أنَّ إيران قدمت موقفاً لغزة، على ضعفه وتردده في معركة الطوفان، لكنه أقوى من المواقف العربية، ومع هذا فليس موقفاً استراتيجياً، بل تكتيكياً مرحلياً.

ـ ونظرُ العالِمِ يجب أن يكون إلى كل علل الشريعة الموجبة للأحكام، ولا يقتصر على جزئية وينسى بقية الكليات وبقية الجزئيات، فلا ينظر إلى علَّةٍ شرعيةٍ ويتجاهل بقية العلل الموجبة للأحكام.

ـ فإن الموجبات الشرعية لدفع الحرابة التي تمارسها إيران في الدول المحتلة لها؛ في اليمن والعراق، وقبل ذلك سوريا ولبنان، هذه الموجبات واضحة وصريحة وقاطعة، والمفاسد عظيمة.

ونصرتها لغزة إن كان لها أثر ليس بمانع من تلك الموجبات الشرعية التي تستدعي الوقوف أمامها بكل قوة لدفع حرابتها وفسادها، ومن ادَّعى المنع فهو متوهم لمانع شرعيٍّ لا صحة له.

وقد يقع عالم الشرعية تحت تأثير نازلة لها أثرها الشرعي، لكنها جزئية بالنظر إلى ميزان المصالح والمفاسد.

ـ كما أن مشاعر نصرة غزة بلا قراءة واعية وحقيقية لعلل الشريعة وتنزيلها يوقع في خطأ في النظر والتنزيل.

ـ كما أن الموجبات لقتال إسرائيل وإزالة فسادها في الأرض، وإنقاذ غزة والمستضعفين بينةٌ واضحة.

ـ وقتالها إيران ليس بمانع من تلك الموجبات الكبرى، وهذه الموجبات والعلل لا تتزاحم، ولا تتزاحم الواجبات، ولكلٍّ وقتُهُ وأسبابُه.

وعليه: فيجب علينا أن تكون الرؤيةُ واضحةً؛ لإيجاد وضوح شرعي في النازلة.

ـ ولو أن إيران لم تفعل بالأمة ما فعلت لاصطفَّتِ الأمةُ معها جميعاً.

رابعاً: لماذا تباينت نظرة الشعوب، وهل يختلف الحكم في دفع الحرابة والعدوان بين مسلم وكافر؟

ـ وهذا محورٌ جوهريٌّ غلط فيه من غلط؛ فنقل كلام شيخ الاسلام في نصرة المبتدع ولو غليظاً على الكافر. وهذا فقه خاطئ، فإن كلامه –رحمه الله–في مبتدع ليس محارباً ولا مفسداً في الأرض.

ـ أما هو فالنظر فقط إلى الأشدِّ ضرراً وفتكاً بالمسلمين.

لذلك بدأ صلاح الدين، فأزال دولة الباطنية حتى استطاع توحيد الأمة وتحرير الأقصى؛ لأن وجود الفاطميين كان مانعاً شرعياً عظيماً يحول دون إقامة التكليف الشرعي، وكان التمزق والفرقة موانع أخرى لكن ذلك كان سبباً لهذه الموانع؛ لأن التشيعَ أصلٌ في تمزيق الأمةِ وتفريقها والنكالِ بها عبر التاريخ، فكيف سيتحقق لها نصر أو تمكين أو تحرير للأقصى.

وأقول: لا يمكن أن تتحرر فلسطين وعموم دول السنة إما محتل مشرد من إيران أو مفرق ممزق.

ـ وقد رأينا تباينات في مواقف علماء الأمة وشعوبها، وهذه التباينات مبنيةٌ على تعليل وموازنات، لكنها تختلف من حيث النظرة الكلية والجزئية واللحظية والمآلية الدائمة.

ـ فنظرة الشعوب الذين تحتلهم إيران، وأذاقتهم ألوان التنكيل والعذاب تختلف عن نظرة من لم تصليهم نارها وعذابها وخسفها.

ويجب أن نعلم أن القاتل في الشرع قاتلٌ، كان مسلماً أو غير مسلم، والعدوان محرم من مسلم وغير مسلم، فلا ينظر المسلم إلى المجرم هل هو سني أو شيعي أو مبتدع أو كافر، ومن المعلوم أن المسلمين تتكافأ دماؤهم وأعراضهم وحرمة أموالهم.

فاليمني والعراقي والفلسطيني والغزاوي والمصري والخليجي وكل المسلمين يتساوون في ذلك.

وعليه: فأي انتهاك ممن كان يجب أن تقوم فيه القراءة الشرعية على هذه الأصل، لهذا لا ينظر الإسلام إلى القاتل، كافراً أو مسلماً، سنياً أو شيعياً، بل إلى ما يوجب القصاص لعلةِ العدوان والحرابة، ولا يفرق بينه وبين الكافر؛ لأن وصف الكفر أو البدعة والسنة غير مؤثر هنا.

وعليه: ولا يحقُّ لك أن تقول للمظلومِ المقتولِ المشرَّدِ، المحتلةِ بلدُهُ: لماذا لم تندد بضرب إيران؟

والجواب ببساطة: أنه لا يمكن أن تقول للمظلوم: نَدِّد بظالم قام فقاتل من جارَ عليك وظلمك، كائناً من كان، هذا يخالف العقل والمنطق والفطرة والشرع.

كما أنه لا يحق للآخر أن يقول: لماذا تفرح بصواريخ إيران وهي تضرب عمق إسرائيل، ذلك أن ضربها مصلحة لغزة يفرح بها من ظلمتهم أولاً، وكلُّ مسلم، وكلُّ إنسانٍ حر، فضلاً عن غزة وفلسطين.

ـ ولا يوجد أحدٌ لا يُسَرُّ بأيِّ فرج ونصر لغزة ممن كان.

وبناء عليه: فإن اتخاذ غزة المسلمة علة لبناء الحكم الشرعي في كل شاردة وواردة، وفي مصير الأمة كلِّها، وإغفال العلل الأخرى المؤثرة في الحكم الشرعي، وهي الفساد الكبير في الأرض، واحتلال أربع دول، وتشريد ١٥ مليون سني وانتهاك أعراضهم ودماءهم وأموالهم، وتدمير مساجدهم، وقتل أكثر من مليون ونصف سني، وسجن وسحل وتعذيب وتنكيل أهل السنة بالملايين بسبب إيران.

إذاً أين الفقه، وأين قراءة المآلات والواقع؟

ـ إن التأثير العاطفي والضغط والتضخيم على حساب قضية أهل السنة في الأرض لا يوصل إلى بناء حكم شرعي صحيح، والعدل أن ينصر هذا وهذا، وأن تحرم أعراض ودماء وأموال هؤلاء وهؤلاء.

ـ إذاً الموقف الشرعي لا يُبنى إلا على تصور صحيح كلِّي وجزئي حالي ومآلي، يحقق المناطين؛ المناط العام والمناط الخاص.

والمناط العام هنا: هو ما ستؤول إليه الأمة وشعوبها جراء هذا الصراع.

والمناط الخاص: ما يتعلق بغزة واليمن والعراق ودول الاحتلال الشيعي والدول التي ستتأثر مباشرة من الحرب مآلاً.

خامساً: والموقف الشرعي الصحيح نقدمه بحقيقتين:

١- إنَّ إسرائيل ومشروعها الغربي خطرٌ وجوديٌّ على الأمة والمشروع الإسلامي.

٢- وإيران ومشروعها كذلك اتضح أنه خطرٌ وجوديٌّ على الأمة ومشروع الإسلام ونشره في الأرض.

والحل الشرعي:

- نقول فرضاً وجدلاً وواقعاً هو بيد إيران أولاً، وهو أن تتقارب مع الدول المسلمة ومع جيرانها، بشرط عاجل وعادل، هو إنهاء نفوذها وأدواتها في المنطقة التي جرَّعت الشعوبَ الويلات.
- وأن تكون دولةً جارةً مسلمةً صديقةً، لها حقوقها السياسية وكلُّ حقٍّ أمر به الإسلام لها.

- لكن للأسف كل محاولات التقارب والتعايش التي نادى بها العلماء وصلت إلى الفشل.

- وتكرار التجربة لا مانع منه، لكن النتيجة معروفة؛ لأن الإشكالية أنَّ ذلك التوسع والصراع الإيراني في المنطقة نابعٌ من مشروع مختلف، قائم على عقيدة تحريمية للسنة من جيرانهم وعموم دول الإسلام وشعوبها وحركاتها السنية ما سلم من أذاهم أحد، حتى باكستان التي تقف معها الآن موقفاً مصلحياً آذتها إيران وحركاتها أشد الأذى، ولولا القوة العسكرية المتماسكة مع العقيدة المتماسكة لآلت إلى ما لا يُحمدُ عقباه.

- وثنائية القوة والعقيدة هي التي تصارع وتقاوم وتحمي الدول والشعوب، أما مجرد الفكر فسيُقضى عليه بقوة السحق والسجن والتشريد والقتل، كما هو الحال في دول الامتداد الشيعي.

- لذلك من الأمانة الشرعية عدم العماية على الأجيال والشعوب السُنِّية العريضة، بل الواجب بيان العدو بوضوح، وأنَّ المحور الشيعي والصهيوني عدوُّ الأمة الواضح. ومن أعظم مصالح الأمة زوالهما، فإن زالا بإهلاك بعضهم بعضاً فهذا يحقق مصلحتين عظيمتين للأمة.

وإن زال المحور الشيعي: حقق من المصالح للأمة عموماً ودفع من المفاسد أعظمها؛ لأن العدو الصهيوني واضح للعيان عدو لله ورسوله محتل غاصب يفهم هذا العامي، والأمة معادية له غير موالية. والنصر وتحرير فلسطين تبع لهذه العقيدة فيه.

ـ لكن المفسدة الأكبر أن تمزق الأمة من داخلها، ويصير هذا التمزيق والتنكيل عقيدةً عند العوام يُربَّى عليها الجيل، ينشؤون على حقد للمسلمين من أول طبقة وهم الصحابة فضلاً عن عموم أهل الإسلام أتباع الصحابة.

ـ فهو منهج مبني على تدمير الأمة، ويؤول الأمر أن بعض لا عدو لها غير الأمة والسنة الثوابت.

ـ لذلك عبر التاريخ لم تتجه البوصلة الشيعية إلا إلى الداخل السني في الأمة فقط.

ـ وأما عداؤهم لغيرهم فغير موجود إلا إن اضطروا دفاعاً عن وجودهم، لا عن الأمة.

ـ لهذا نجد الفاطمية والبويهيَّة والقرامطة والرسية نكَّلوا بأهل السنة –وهم عموم الأمة– أعظم مما نكل بهم العدو الصليبي في الغالب الإحصائي والحالي والمآلي، ومفاسدهم أعظم وما انتهكوا أكبر.

ـ والعدو الاستعماري اليوم يريد منك مالكَ وثرواتكَ، والهيمنة عليك، ولا يريد دينك أصالة، بل تبعاً؛ لأن التمسك به معناه دفع فساده.

ـ لكن المحور الشيعي يأتي على رأس مصفوفة أهدافه؛ الدين والثوابت والمال والعرض والدم والتنكيل والتشريد والتفجير والمسجد والوظيفة والدولة. كلُّ شيء تقريباً.

ـ فيكون عمل الأمة وهمها: كيف أدافع عن نفسي من الحرابة الشيعية المفسدة في الأرض.

ـ ولن يفكِّر في تحرير فلسطين ولا غيرها؛ لأن الأرض صارت كلها محتلة.

ـ أما اتخاذ موقف من العدو بحجج مصلحية جزئية يراها البعض، فمضارُّها أكبر من مصالحها، لما له من أثر على الأمة، وتخذيل شعوبها، وتشويش رؤيتهم للعدو وحقيقة الصراع.

وما له من أثر على قرابة ١٠٠ مليون مسلم سني في اليمن والشام والعراق اصطلوا بنار الطائفة الشيعية.

⟸ **وعالم الشرع في مثل هذا الصراع وظهور المفاسد في كل الاحتمالات عليه نصح الأمة والبيان لها بما يصلحها حالاً ومآلاً.**

⟸ **وعليه مواصلة البناء للجيل ومواصلة حمل وبلاغ مشروع الرسالة، ويسعه إلجام قلمه أو لسانه عن التصريحات إن لم يتبين له الجادة، أو لم يقرأ الأمر بشمولية كاملة.**

سادساً: على مستوى الدول:

ـ أما على مستوى دول الأمة: فعليها أن تجمع كلمتها، وتقوم بإنشاء تحالف بين دولها سياسي واقتصادي وعسكري عاجل بدأ بدول الخليج والشام والعراق واليمن ومصر وتركيا وباكستان، ثم ماليزيا وإندونيسيا.

❖ **هذا واجب عليها، مالم فإن المسلمين ودولهم في مهبِّ الريح، ليس لهم وزن ولا قيمة، بل هم جغرافيا صراع لمشاريع كبرى تمزقهم الانتماءات إلى هنا وهناك.**

ـ ويأتي على رأس واجبها الشرعي إنقاذ غزة بكلِّ وسائل الضغط، وعندها ما تستطيع فعله.

ـ وتحرير فلسطين كاملة من الواجبات الشرعية على الأمة، وهذا لا يتحقق إلا بما ذكرنا.

ـ كما أن من واجب الساعة تخليص الأمة من النفوذ والاحتلال الشيعي وأيِّ نوع من أي مشروع من المشاريع المذكورة، وحماية الجيل وعقيدته ودينه، والوعي بصراع المشاريع الكبرى.

ـ وتبصير الأجيال بكل هذا لحمايتهم، هكذا ستنهض الأمة لا بتجزيء المشاريع والمصالح، أو تجزيء المواقف والتصريحات والفتاوى بدون استيعاب للصورة بكاملها، مع البيان والنصح والإعذار.

ـ وأن يكون موقف المسلم والعالم من الحرب القائمة مبنية على صورة كاملة وعلى مناطات شرعية كاملة.

والله من وراء القصد.

أ.د. فضل عبد الله مراد